نظم التربية في الإسلام

لحضرة الاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية بدار العلوم

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام لينق القلوب من أدران الشرك ، ويملأها بنور الإيمان ، ويقتلع من النفوس جذور الرذيلة ويثبت فيها أصول الفضيلة ، ويجتث من العقول المبادئ الفاسدة ، ويغرس مكانها الافكار الصالحة . ومعنى ذلك بلغة التربية الحديثة : أنه بعث لتحقيق أغراض ثلاثة هامة هي :

(١) تقويم الوجدان . (٢) تربية الإدراك . (٣) تهذيب السلوك .

وإن الله تعالى ليذكر هذه الأغراض واضحة جلية في القرآن الكريم فقال تعالى "لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ". وقال "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ". بيد أن الغرض الأسمى من التربية الإسلامية هو تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك ، ومصداق ذلك قوله تعالى "يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ". وقول الرسول صلى الله عليه وسلم "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ولا عجب فإن تقويم الأخلاق أسمى غايات التربية وأنبل مقاصدها .

على أن الإسلام لم يهمل تربية الإدراك ، بل إنه رفع من شأن العلم والعلماء. قال تعالى "يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" وقال صلى الله عليه وسلم "العلماء ورثة الأنبياء" وقد حث البارئ على طلب العلم بقوله : "فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ" وقوله "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في الموضوع نفسه "من طلب طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة".

والإسلام كما يوجب على الجاهل أن يتعلم يوجب على المتعلم أن يعلم ، قال تعالى "وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ" وقال "وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ" وقال مقرعا من يكتمون العلم "وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : "لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها" ، وقال "من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" وقال "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" .

وليست عناية الإسلام بالتربية الوجدانية بأقل من عنايته بتقويم السلوك وتربية الإدراك ، لأن قوة الوجدان وطهارته دافع قوى إلى العمل الصالح والسلوك المستحسن ، قال تعالى "هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم" والتزكية تشمل تطهير القلوب من أمراضها والنفوس من علالها .

وقد حمل الإسلام حملة شعواء على أمراض القلب وشذوذ الوجدان من الحسد والكبر والنفاق والرياء والغضب وسوء النية : "وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ" ، "لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ" "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" . ومن حديث الرسول "لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا" .

وينهى الإسلام أشد النهى عن الاستسلام للانفعالات الضارة بالعقل والجسم المورثة للعداوة والبغضاء بين الناس وخاصة الغضب . ولا يقتصر الإسلام على ذلك بل يأمر بأن تحل محلها الانفعالات والعواطف الطيبة المؤدية إلى التحاب والتواصل كمحبة الناس والعفو عنهم والعطف عليهم . بل إنه ليذهب أبعد من ذلك فيأمر بالرفق بالحيوان ، ويشدد النكير على من يقسو عليه ، وأخيرا يجعل حسن النية مقياس الأعمال الحسنة ، قال تعالى "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ" وقال : "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ" وقال "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" ، "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" و "إن الله يحب الرفق فى الأمر كله" و "إن الله تعالى كتب الاحسان على كل شىء" و "فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" "دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض" "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة" .

أيها الاخوان :

يقول "إمانول كانت" فيلسوف الأخلاق الألمانى : إن حسن النية هو الكل فى الكل فى الأخلاق، فيهال له المحدثون من علماء الأخلاق ويطربون بقوله ، وما دروا أن محمد بن عبد الله ابن الصحراء وربيب السماء قد قال من قبل "كانت" بنحو ألف ومائة سنة : "إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ ما نوى" بل إن هذا الرسول ليقرر ما هو أوضح من ذلك وأشد تأثيرا فى النفس إذ يقول : "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم".

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى للمربى الكامل ، كان مخلصا فى عمله ، صبورا على المكاره ، حليما فى غير ضعف ، شديدا فى غير عنف ، قوى العارضة ، حاضر البديهة ، واضح الحجة ، قوى الدليل ، يسأل فيحسن السؤال ، ويُسأل فيحسن الإجابة ، ويخاطب الناس على قدر عقولهم ، أو ينزل إلى مستوى تلاميذه كما يقول علماء التربية . وكان لا يأمر بشىء إلا ويسبق الناس إلى اتباعه ، ولا ينهى عن أمر إلا ويسارع إلى اجتنابه ، فكان بذلك مثالا حيا لتعاليمه ، ونموذجا محسا لآدابه . ولم يكن عليه السلام يكثر من وعظ أصحابه و إرشادهم فى جلسة واحدة خشية أن يملوا ، فعن ابن مسعود أنه قال "كان صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهية السآمة علينا". وقد عاتبه الله إذ غلبته الطبيعة البشرية مرة فعبس فى وجه صحابى قيل هو ابن أم مكتوم فقال تعالى: "عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى" وأخلق بمعلم يتعهده الله أن يكون قدوة حسنة للعالمين، و بمرب يرعاه الرب أن يكون مثلا أعلى للمربين، وصدق الله حيث يقول "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ" وحيث يقول : "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" .

وقد سلك القرآن فى بيان العقائد والأحكام مسلكا مناسبا لمستوى العرب العقلى ، فكان ما فيه من أمثلة ومقدمات مشتقة من بيئة العرب وتجاربهم ومشاهداتهم، فليس فيه التواء ولا تعسف ولا إسفاف ولا تكلف ، ولم يأت بما هو غريب عن البيئة العربية ولا بعيد عن مشاهدات العرب وتجاربهم العادية، و إنك لتراه متمشيا مع المنطق الفطرى المقنع المؤثر، فتارة يأتى بالأمثلة والشواهد المحسة و ينتقل منها انتقالا منسجما إلى الأمور المعنوية ، و يضرب الأمثال بالأمور الحسية للحقائق المعنوية ليقربها إلى الأذهان ؛ وتارة أخرى يأتى بالعقيدة أو الحكم ويتبعه مباشرة بالاستدلال عليه بالمشاهدات والتجارب اليومية. والطريقة الأولى هى المعروفة لدى علماء التربية بالطريقة الاستقرائية، والثانية هى الموسومة بالطريقة القياسية .

من ذلك ترون أيها السادة أنه لا يعلمنا العقيدة الاسلامية فقط ، ولا يشرح لنا الاحكام الدينية فحسب ، ولكنه مع هذا وذاك يعلمنا بطريق غير مباشر كيف نعلم المتعلمين فننزل إلى مستواهم العقلي ، ونستعين على تفهيمهم الأمور المعنوية بالأمثلة الحسية والشواهد نأتي بها من تجاربهم ومشاهداتهم ، ولعمري إن هذا الأساس من أهم أسس التربية التي تنبه إليها من مربي العرب الغزالي وابن خلدون ، ومن مربي الفرنجة بستالوتزي وفروبل ومن نحا نحوهما من مربي القرن العشرين .

سيداتي سادتي :

أختم كلمتي بالتحدث عن موضوع لا يقل في أهميته عن الموضوعات السابقة ، ذلك هو حظ المرأة من التربية في الاسلام .

قد عرض كثير من زملائي السابقين لبحث هذا الموضوع من نواح شتى فأجادوا وأفادوا وكانوا في بحوثهم جد موفقين ، غير أن ذلك لا يمنع من أن أضم صوتي إلى أصواتهم فأقول :

إن التربية الاسلامية في العصر الاسلامي الأول لم تكن لتفرق بين الرجل والمرأة ، فقد أوجب الاسلام عليهما معا طلب العلم بنص الحديث المشهور ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" وقد كان النساء يحضرن مجالس الرسول ويستمعن إلى مواعظه وتعاليمه ، يدل على ذلك ما نقل عن أبي سعيد الخدري أنه قال " قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما يعظهن فيه فوعظهن " وعن ابن عباس أنه قال " أشهد على النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة . ولم يحث الرسول على تعليم الأحرار من النساء المسلمات فقط ، بل إنه رغب أشد ترغيب في تعليم الإماء أيضا حيث قال : ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران" . فانظروا رعاكم الله كيف يحث الرسول على تأديب الأمة أحسن تأديب وتربيتها أحسن تربية ثم عتقها ثم التزوج منها : انه لشعور يفيض انسانية ونبلا ، وإنها للطمة قوية في وجه من يدعي جهلا وتطاولا أن الاسلام يقف في وجه المرأة ويحط من قدرها ويحول بينها وبين التربية والتعليم . إن التاريخ يشهد على أن المسلمات أقبلن على طلب العلم وأن منهن من كانت لها منزلة علمية راقية ومركز اجتماعي عظيم ، فقد كانت عائشة أم المؤمنين تحسن القراءة والكتابة ، وكانت من أكثر الناس رواية عن الرسول ، وكان لها شأن يذكر في مجرى التاريخ الاسلامي ، وقد قال الرسول في حقها خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء .

وكانت أم سلمة وحفصة بنت عمر زوج النبي وأم كلثوم بنت عقبة وعائشة بنت سعد وكريمة بنت المقداد تحسن الكتابة، وكان من بنات العرب أديبات حافظات للقرآن راويات للشعر عالمات بمختلف العلوم مطلعات على شتى المعارف والفنون . كما كان منهن معلمات فضليات تخرج عليهن أساتذة العلوم وفحول الفصاحة والبيان، فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة سكينة بنت الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنها كانت أديبة فاضلة ، وأنها كانت تحضر مجالس الشعراء فتنتقد شعرهم ولها معهم ومع غيرهم من الأدباء نوادر وحكايات ظريفة. وذكر المؤرخ نفسه أن الإمام الشافعي رضى الله عنه لما حضر إلى مصر ذهب إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد وسمع عليها الحديث .

ولو أن التاريخ أنصف المتعلمات المسلمات ونقل إلينا تاريخهن بشيء من التفصيل لعلمنا من أخبارهن أكثر مما نعرف الآن، ولاستطعنا أن نبين بصورة أوضح مقدار حظهن من الثقافة الاسلامية .

ومهما يكن من شيء فليس هناك أدنى شك فى أن الاسلام قد هيأ للمسلمات فرصا للتربية الراقية من انتهزتها منهن بلغت بها أعلى المراتب التى قدر للرجال بلوغها ، وليست الأمية التى كانت فاشية بين النساء وشهدنا آثارها بمصر فى الجيل الماضى بدليل على محاربة الاسلام للنساء وتربيتهم كما يتوهم قصير و النظر والمتحاملون على الاسلام والمسلمين ، و إنما كانت مظهرا من مظاهر الجهل المطبق فى عصور الدول المتتابعة الذى عمت آثاره الرجال والنساء . فإذا نهض النساء فى عصرنا الحاضر ، فأقبلن على العلم وقصدن دوره ، ووردن مناهله ، فإنهن لم يأتين بدعا و إنما أحيين سنة صالحة سنها النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ بها الخلفاء والأمراء من بعده .

بيد أنى أرى من الواجب الحتمى ألا نذهب فى تربية البنت مذهب من يسوونها بالابن، إذ من الضرورى أن نسلك فى تربيتها مسلكا طبيعيا ، ونسير فى تنشئتها سيرا ملائما لتكوينها الفطرى، وهذا هو ما يتفق مع أساليب الاسلام، وما نصح به المحدثون من المربين ، وخاصة العلامة هورن الأمريكى فى كتابه الممتع "المثلية فى التربية" . والله تعالى نسأل أن يوفقنا إلى اتباع مناهج الاسلام ؛

حامد عبد القادر